

الكرامة والإغتراب بحث في ذات إيموهاغ في رواية أنوبيس لإبراهيم الكوني

Dignity and Alienation: a research into the identity of Imohaug people from the novel "Anubis" by Ibrahim Al-koni



خنيش نورالدين *

جامعة مولود معمري تيزي وزو

Noureddine.kheniche@ummtto.dz

تاريخ الاستلام: 2023/08/23 تاريخ القبول 2023/11/15 تاريخ النشر 2023/12/31



ملخص: ينطلق بحثنا المعنون بـ: الكرامة والإغتراب بحث في ذات إيموهاغ في رواية أنوبيس للكاتب إبراهيم الكوني حيث نعالج قضية الإغتراب التي عايشها أنوبي منذ نشأته ومحاولته لطرح الأسئلة على "الما"(الأم) التي قدّمت له أجوبة لاهوتية دينية المحتوى مما قادنا إلى البحث في الجانب الفلسفي والديني للطوارق، فالكوني يرسخ عبر الرواية إلى فهم الأسطورة وتناولها في فن الرواية، لنحاول فهم التركيبة الطارقية من خلال أنوبيس ولماذا يخرج مجتمع إيموهاغ إلى الصحراء ولا يقوم على الاستقرار من خلال الأسطورة التي جمعها الكوني، لنعالج قضية المسخ والتحول والكرامة الصوفية في دراستنا هذه وعديد الجوانب التي يتناولها الكوني في فلسفة الصحراء الأسطورية.

الكلمات المفتاحية: إيموهاغ؛ الأسطورة؛ أنوبيس؛ الكرامة الصوفية؛ الإغتراب؛

Abstract:

In our research, entitled 'Dignity and alienation: a research into the identity of imohaug/Tuareg people from the novel 'Anubis' by Ibrahim Al-KONI, we address the issue of alienation experienced by the novel's protagonist, Anubi, and his attempt to ask his "ma"(mother) questions, who in turn gave him religious and theological answers, her answers led

* خنيش نورالدين

us to investigate the philosophical and religious aspects of the “Tuareg” culture in the novel, Al-Koni establishes an understanding of myth and its uses in the art of the novel, moreover, we try to understand through the author’s use of myth in the novel and through the protagonist Anubi, the “Tuareg” people’s social structure and the answer to why they live a nomadic lifestyle, additionally, in our research, we address the issues of metamorphosis, transformation, the dignity of Sufism, and many philosophical aspects Al-Koni deals with in the novel

Key words: imohaug; the legend; Anubis; Sufi dignity; Alienation;

مقدمة:

يتعرض الإنسان لعدد كبير من الصدمات في حياته، كما تختلف التجربة من فرد لآخر ولكن السالك لطريق النجاة مُطالب بالثبات عندما يُحدّق به الموت، ويدرك معالم نهايته وتتعدد كل سبّله لنجاة في واقعنا العربي غالباً ما نلجأ للمرشدين ولأشخاص نعتقدهم حكماء وعلماء بشريعة الله التي يَجزم كل مسلم أنها منجاة لكل إنسان من الاغتراب، أما لدى أمة إيموهاغ فهم يتسمون بميزة خاصة وهي الترحال بحثاً عن الماء وجفاف هذه المنابع أكسبهم حكمة خاصة بهم فهم لا يتشبثون بالاستقرار ولا يرتاح لهم بال ما لم يسيحوا في الأرض، إن هذه الطريقة في الحياة جعلتهم يتأهبون دائماً في رحلة البحث عن شيء مفقود خاص بهم هذا ما نجده في أساطيرهم، وأسطورة أنوبيس تمنحنا جانباً من حكاية الطوارق ومعتقداتهم وفلسفتهم الحياتية ومنهجهم الديني المتبع لمعرفة الحقيقة.

تتطرق رواية أنوبيس من خلال شخصية أنوبي المصابة بالقلق الوجودي الذي دفعها إلى طرح العديد من الأسئلة بحثاً عن الحقيقة والوجود سأل أنوبي عن الأب وعن نفسه وكيفية خلقه، وعن هذا الأب الذي كان يرباه من مساء اليوم ويغادر عند الفجر ليقابل بأجوبة من والدته أيقظت شغف البحث عن الغائب لديه، فهذا الطفل الذي يبحث عن ذلك الطيف الأبوي عند ركيزة الخيمة تتم الإجابة عن أسئلته بأجوبة روحانية وكأنها توقظ الفطرة الباحثة عن روح الله ليخرج أنوبي مقرراً بعزم البحث عن الأب الغائب، بحثاً عن الأب وبحثاً عن الله بعد صراع وجودي حفزه على الخوض في المجهول رغم تحذيرات

الرعاة ليعبث أنوبي بالصحراء ويحاول ترويض الموت بين مغاراتها، تقودنا الرواية في رحلة مشوقة مدججة بالأحجيات والقصص التي سأحاول الإشارة إليها في مقالي مستندا على الإشكالية الآتية:

كيف يعالج إبراهيم الكوني قضية اغتراب الوجود الإنساني لأمة الطوارق في رواية أنوبيس؟ وإلى أي مدى تتشاكل قضية الاغتراب والكرامة الصوفية وما تمثلاتها في الرواية؟ وكيف تحقق الإغتراب من خلال المسخ ولماذا منحها الكوني أبعادا أسطورية؟

القلق الوجودي وأزمة الهوية كدافع للاغتراب:

تحيلنا كلمة "أبانا" في رواية أنوبيس من خلال سياقها الدّيني إلى الرحلة الكبرى التي عاشها أول إنسان في الأرض "آدم"؛ وتلتقي بعبارة "أبانا الذي في السماوات" هذه الجملة التي تدفعنا إلى التأمل في صياغتها وكيف عبّرت عن "الإله" باعتباره أباً يسكن السماء ويسير أقدار الناس في الأرض.

إنّ التّطرّق إلى قضية الاغتراب يجعلنا نعود إلى سياقها الحضاري الضّارب في عمق الإنسانيّة، فلا شكّ أنّها ترتبط ارتباطاً وثيقاً بقصة "الاغتراب" التي حدثت مع آدم قبل معاقبته بإنزاله للأرض وهذا ما يحثنا للعودة إلى الحادثة في الكتابات اللاهوتية الأولى لنجد أنه يمكن "العودة بظاهرة الاغتراب عند فروم إلى جذورها التاريخيّة في أفكار العهد القديم وخاصة في " سفر التّكوين" ¹ genesis حول ما ورد في قصة حواء وانبثاقها من ضلع آدم فقد وُجد في الإصحاح الثّاني أنّ الله قد "أخذ واحدة من أضلاعه، وملاً مكانها لحما وبني الرّب الإله الضّلّع التي أخذها من آدم امرأة وأحضرها إلى آدم" ² كما جاء في القرآن الكريم أيضاً في هذه القصة يقول الله تعالى في محكم تنزيله "فَدَلَّاهُمَا بِغُرُورٍ ۖ فَلَمَّا ذَاقَا الشَّجَرَةَ بَدَتْ لَهُمَا سَوْآتُهُمَا وَطَفِقَا يَخْصِفَانِ عَلَيْهِمَا مِنْ وَرَقِ الْجَنَّةِ ۖ وَنَادَاهُمَا رَبُّهُمَا أَلَمْ أَنْهَكُمَا عَنْ تِلْكَ الشَّجَرَةِ وَأَقُلْتُ لَكُمَا إِنَّ الشَّيْطَانَ لَكُمَا عَدُوٌّ مُبِينٌ ۚ 22 قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ أَنْفُسَنَا وَإِنْ لَمْ تَغْفِرْ لَنَا وَتَرْحَمْنَا لَنَكُونَنَّ مِنَ الْخَاسِرِينَ 23 قَالَ اهْبِطُوا بَعْضُكُم لِبَعْضٍ

عَدُّو^٣ وَلَكُمْ فِي الْأَرْضِ مُسْتَقَرٌّ وَمَتَاعٌ إِلَى حِينٍ 24 قَالَ فِيهَا تَحْيَوْنَ وَفِيهَا تَمُوتُونَ وَمِنْهَا تُخْرَجُونَ 25 يَا بَنِي آدَمَ قَدْ أَنْزَلْنَا عَلَيْكُمْ لِبَاسًا يُؤَارِي سَوَاتِكُمْ وَرِيشًا^٤ وَلِبَاسُ التَّقْوَىٰ ذَٰلِكَ خَيْرٌ ٥ ذَٰلِكَ مِنْ آيَاتِ اللَّهِ لَعَلَّهُمْ يَذَّكَّرُونَ 26"3

تعدّ هذه القصة القرآنية أول حادثة اغتراب معروفة لدى البشرية وهي اغتراب آدم عن ذاته في ذات أخرى وهي حواء، أما الانفصال الثاني وهو انفصال تتفق عليه كل الديانات السماوية؛ متعلق بسقوط آدم من الجنة إلى الأرض نتيجة عصيان آدم لأوامر الله بأن لا يقرب الشجرة إذ "أخرجه الرب الإله من جنة عدن ليعمر الأرض التي أخذ منها"⁴ يتسنى لنا القول مما سبق بأن شخصية أنوبي في رواية أنوبيس جاءت تكملة للنصوص المقدسة، ذلك الذي يشتغل حوله إبراهيم الكوني في خطابه الروائي حيث تلتقي اشكاليته المعرفية بالإشكالية الجوهرية التي غالبا ما يطرحها أي إنسان يوجد على وجه الأرض ويمكن القول إنّها نفس الأسئلة التي واجهت آدم؛ فالإنسان نسخة عن أبيه البيولوجي والبشر اليوم يعيشون اغترابا في الأرض نتيجة الخطيئة التي وقع فيها آدم؛ لهذا فإنهم يرتبطون به بطريقة ما، تجعلهم يسلكون ذلك المسار الذي يدفعهم الفضول إليه، بحثا عن الإجابات.

يواجه الإنسان الكثير من المشقة في الطريق نحو الحقيقة؛ ذلك ما يسرده البطل في رواية أنوبيس، من خلال ما يذكره عن الأيام الأولى لميلاده؛ هذه الأيام التي دفعته لطرح أسئلة وجودية نابغة من قلق عميق حول ذاته، لعله يحصل على بعض الحقيقة من أمه بعد أن علمته الأسماء بلغته الأم، وفكّت العقدة التي أصابت عضلة لسانه يقول: " أول سؤال أطلقته في وجهه الـ"ما" ما إن استقامت في فمي عضلة لساني هو: "من أين جئت؟ وكان جواب الأم "كما يجيء الناس" لم أقنع بالإجابة فسألت " وكيف يجيء كل الناس؟ أجابت من "أب وأم" قلت: أنت الأم ولكني لماذا لا أرى جوارِي الأب؟"⁵

تشتدّ وطأة القلق والفضول للحقيقة من آخر سؤال وتتعاظم معه الرغبة لاكتشاف حقيقة الشبح الذي كان يلحّ به في البيت هذه الأسئلة التابعة من فطرة الإنسان الحرة حول ذاته ومعرفتها، فيها حرية ممزوجة بقلق وجودي خاصة يقول فروم "إنّ ربط الحرية بالقلق فكرة تنتمي أساساً إلى الفلسفة الوجودية، فعلى سبيل المثال نجد أنّ الحرية عند كيركيغارد Kierkegaard؛ تقوم على الاختيار الذي ينطوي على التبدّد والبعد، لأنّ الإنسان لا يستطيع أن يختار كل الممكنات، بل عليه أن يجازف باختيار أحدهما ويترك الآخر، ومن هنا فإنّ الاختيار يدفع إلى المخاطرة، والمخاطرة بطبيعتها تؤدي إلى القلق، قلق على الإمكانيات عامّة، وقلق من الجانب الذي اختاره الإنسان"⁶.

إنّ أهم جوانب العلاقة بين العائلة والدين هو ذلك التشابه الكبير بين صورة الأب وصورة الله في أذهان المؤمنين والمؤمنات فيصلي المسيحيون: أبانا الذي في السموات ويقول بولس الرسول في إحدى رسائله (يا إخوة اشكروا الله الأب)⁷ "لعلّ هذا الفهم لصورة الأب يتطابق مع المجتمع الطارقي هذا ما يجعل ردّ الأم على ابنها أن قالت " لأن قدر الأباء الغياب ' تعجّبث " لماذا على الأباء أن يرتضوا الغياب قدراً؟ أجابت لأن الآباء كالأرباب لا يكونون أباء بالحقّ إن لم يبتعدوا"⁸ فيكون غياب الأب من غيبية الله ذلك أنّ إدراكنا لوجوده بحواسنا وقلوبنا من خلال الإيمان به هو يقين منا بكيونته دون أن يتراءى لنا فاليقين بالله هو رؤية له في ديانا "ونستطيع أن نتفهم شدة التشابه بين صورة الله وصورة الأب من خلال الأسماء الحسنى فكلتاها يوصفان بأسماء الرحمة والتّجبر في آن معا"⁹ فالأسماء التي يشترك فيها الله وتطلق على الأباء هي نوع من التأليه لهم، ذلك أنّ " الصّفات الإلهية التي يضيفها الإنسان على الذات الإلهية هي صفات إنسانية كالرحمة والحبّ، العدالة، القدرة، الوجود، المعرفة، وإذا كانت الصّفات إنسانية فإنّ الذات أيضاً تكون إنسانية وإذا كان الله ليس إلّا ماهية الإنسان بعد أن يتمّ تجريده من تحديدات الإنسان الفردي، فإنّ الإيمان بالله هو إيمان بالإنسان، بماهيته الحقيقية بعد أن يقذف بها

خارج العالم ويجعلها خارقة لطبيعة وفوق طاقاته البشرية¹⁰ ليتسنى لنا القول بأن الله هو إنعكاس في الإنسان؛ فإنك عندما ترى إنسانا ما في كيفية خلقه وتفاصيل تكوّنه هذا الأمر يدفعك بفضول لمعرفة الخالق، بالرغم من عدم رؤيتك له فيقول -أنوبي- "ولكني رأيته يوما، رأيته لحاء، شبها أقسم ! قالت: ' لن يكون أبا إن لم تره، الأب كالرب لا بد أن يرى يوما ليبرهن على أنه أب! تعجب! ولكن لماذا عليه أن يختفي إذا كان يستطيع أن يظهر؟ أجابت 'لأننا لا ننع حقًا إلا بما نراه، ولكننا لا نؤمن إلا بما لا نراه"¹¹

إنّ العودة إلى اسم "أنوبي" أو "أنوبيس في لسان الطوارق هو الابن مجهول الأب، وهو كذلك في المصيرية القديمة أيضا، حيث تروي الأسطورة أنّ أنوبيس كان الابن غير الشرعي لأوزوريس لأنه عاشر نفتيس، قرينة شقيقه ستّ، عن طريق الخطأ، فأنجب منها أنوبيس الذي صار الإله الحارس على الموتى في العالم السفلي¹² إن هذه الأسطورة تبين لنا بشكل قطعي أنّ الأب هنا مضمّر، ويحمل دلالة الله؛ لأن ما يفصح عنه نصّ الرواية حول نسب "أنوبي" يجعل من أمه تحببه أجوبة تدفع به للبحث بعمق عن الأب الأكبر والذي هو الله، لأن الأب البيولوجي مجهول وغائب عند مجهولي النسب، فأنوبي هنا هو ابن الله من خلال الأسطورة "ويقول فرويد في معرض الحديث عن " الصلة الوثيقة بين عقدة الأب والإيمان بالله إنّ التحليل النفسي يظهر لنا أن الله الشخصي ليس هو نفسيا سوى أب عظيم"¹³ فالأسئلة التي تطرحها الشخصية هي في الحقيقة نوع من الحرية التي اكتسبتها، والإجابات التي تلقاها هي إنقاذ من التيه الذي قد يصطدم به ولهذا منح تلك الحرية في التساؤل عن الأب، إذ " بوسع المرء أن يتحدث عن الاغتراب وعن الحرية بالنسبة لأولئك الذين يؤمنون بالله أو بالآلهة، فهناك كذلك اغتراب عن الله أو الآلهة"¹⁴

فالبينة الطارقة هي التي تدفع الإنسان إلى التأمل بحثا عن المفقود؛ ذلك الكيان العظيم الذي تستسيغه أنفسهم وتركن إليه ولعبادته كما كان يعتزل رسول الله محمد في غار حراء بحثا عن السكينة والأجوبة التي كانت تدور في عقله.

إنّ الاغتراب الذي يقول به علماء النفس، هو مرتبط "بالحاجات الروحية؛ حيث إنّ هذه الحاجات تدفع الإنسان للبحث عن إله يعظمه ويقدّسه ويرتبط به ويلجأ إليه ويعمل ما يرضيه من العبادات"¹⁵ لنجد في البيئة الصحراوية تكويناً لديانات صنيّة وغيرها من الطّقوس التي يعتبرها أهل هذه البيئة عبادة لآلهة ما تقيهم مخاطر الحياة مثلما عرف عن شبه الجزيرة العربية وذلك ما نلتمسه في قول أنوبي: "سكّنت اكتأبت رنّت إلى الخلاء المغمور بضياء رغ المجيد"¹⁶ كل تلك الأسئلة الوجودية التي يطرحها أنوبي جعلته يعيش قلقاً، فكل إنسان شغوف بأن يعرف كيف جاء ومن أي صلب خلق، إذ يقول إيريك فروم نقلاً عن كيركيجارد أنه "يستنتج أنّ الإنسان الحديث عندما يضحى بحريته في مقابل الطمأنينة الزائفة للجمهور، فإنه يفقد ذاته كإنسان، ويصبح ذلك الفرد الذي لم يعد ينتمي إلى الله أو إلى ذاته"¹⁷ هذا ما لم يقدّم به أنوبيس؛ فهو لم يستسلم لكل ما سمعه عن مخاطر الخروج بحثاً عن الأب وما يترتب عنه، الإنسان لا يجب أن يفقد ذاته مقابل تلك الراحة التي يكتسبها رعاة الإبل بتراجعهم عن قرار الخروج يقول حلّيم بركات أن: "المعضلة الأساسية هي الحرّية، فالمهمة الأولى للإنسان أن يؤكّد حرّيته ويسلك طريقه الخاص"¹⁸ وهذا ما يتأكد من الخروج الذي أرادته الشّخصية البطلة رغم تحذيره من مخاطر الصحراء، خوف وموت وضياح فالرعاة حذروه: "إياك أن تبحث في الصحراء عن أب! هذا يجلب النحوس!

حدّق في وجهي مليّاً فقرأ في عيني تصميمًا، بل استنكارًا، قبل أن يرى الرّجفة في جسدي، فقرّر أن يستسلم، نفث من صدره سعيراً قبل أن يقول بلسان الرّحمة؛ عبثاً نحاول أن نثني إنساناً عن أمر إذا كان في الأمر قدره"¹⁹

إنّ تلك التّزعة إلى فهم الوجود والمصير، تدفع بالإنسان إلى السّعي نحو الحرّية، فتكون رحلة البحث عن الأب هنا مربكة في بدايتها؛ محكومة بأسئلة طبيعية، لكن الإجابة عنها من الأم كانت هي المحفّز لدفعه نحو البحث والخروج؛ لنؤوّل للأمر هنا بالصحراء التي تدفع

كل إنسان إلى البحث عن الحقيقة في وجهها الآخر وهي الله تقول: "نحن نعبد الأسماء، ولكننا لا نحب إلا الصّحراء! السماء لنا أب نعبده لأنه بعيد نعبده لأننا لا نعلم من أمره شيئاً ولكننا حيثما التفتنا وجدنا الصّحراء إلى جوارنا لذلك نحب الصّحراء لأننا نراها أمّا!"²⁰ "يُست فقرأت في ياسي الهمّ" إنّ اليأس هنا؛ هو نوع من الاحتجاج والثّورة برغم الأجوبة الّتي تُلقِيها إلى "أنوبيس" ولكنه يبقى متعطشا للقاء الأب.

يستند الكوني في كتابة خطابه الرّوائيّ على استحضار الأسطورة؛ إذ نلفيه يكتب بمخيال ذلك الصّحراوي الذي عايش قصص الجنّ وحكايات الأجداد وما يروونه في حياتهم من أشياء غريبة، خاصة ما يُرى في الكهوف من رسومات جدارية خطها الأجداد لبعض الكائنات الغريبة الّتي قد تكون عاشت في فترة على هذه الأرض إذ يصارحنا الكوني في بداية روايته أنه كافح "في سبيل الحصول على هذه الأسطورة رواية أخرى لو قدّر لي أن أكتبها لفاقت أنوبيس حجماً"²¹ لأن أسطورة أنوبيس "كما كانت الأداة التي توسّل بها الإنسان البدائي لتوكيد طبيعته الإنسانية ووجوده الاجتماعي لنفي اغترابه عن الطّبيعة كانت أداة الإنسان المعاصر أيضاً للكشف عن جذور اغترابه في المجتمعات المتميزة طبقياً ولتأكيد شوقه لنفي هذا الاغتراب"²² تحيلنا العتبة النّصيّة الّتي يفتح بها الكوني خطابه الرّوائيّ إلى الكيفية الّتي حصل بها على هذه الأسطورة يقول: "سمعت نْتفاً منها من ألسنة عجائز الصّحراء 'تينغرت' زمن الطّفولة المبكّرة وسمعت أجزاء أخرى من أشياخ القبائل 'أزجر' زمن الطّفولة المتأخّرة وما سمعته من أسياد القوم أشعل فضولي"²³ ما يدلّ على أن الثقافة الطارقية كانت تعتمد على السمع مثلما عُرف عن أهل الصحراء العربية وهذا ما جعله يهيم في الصحراء بحثاً عن النص الأول

لعلّ سبب اختيار إبراهيم الكوني لهذه الأسطورة باعتبارها أقدم أسطورة لسلالة إيموهاغ يقول بأن وجودها "يرجع إلى أزمنة بدائية سبقت أقدم أساطير القوم المتمثلة في 'تانس و وانس' مما يستهوي كل شاعر لا يرى في حياته بين الناس إلّا أسطورة، ولا يرى في

الأسطورة إلا حياة" ²⁴ وهذا ما نلاحظه من خلال أحداث الرواية التي منحها بعدها الأسطوري حرية كبيرة من أجل التعبير عن كل ما يختلج الإنسان المغترب من متاعب " فقد أدرك مفكرو القرن العشرين أنّ الأساطير حافلة بما له أعظم دلالة على قدر الإنسان وحياته ومصيره، وهي العالم الوحيد الذي تختفي فيه قوانين المادة والحياة، وينطلق فيه الفكر انطلاقاً غير محدود" ²⁵ والأسطورة كما يقول نضال صالح في كتابه النزوع الأسطوري هي: " رواية أفعال إله أو شبه إله لتفسير علاقة الإنسان بالكون أو بنظام اجتماعي بذاته أو عرف بعينه أو بيئة لها خصائص تتفرد بها، أو هي مظهر لمحاولات الإنسان الأولى كي ينظم تجربة حياته في وجود غامض خفي إلى نوع ما من النظام المعترف به. وقد اشترط غريمال لتسمية مغامرات العقل الأولى بالأساطير أن تكون تلك المغامرات حول تكوين العالم وولادة الآلهة" ²⁶ لتكون العودة إلى كتابة أسطورة أنوبيس في قالب الرواية بمثابة نحت لها في قالب جديد من أجل قول " الحقيقة حقيقة الأسطورة كمتن نال منه الزمان، وحوّرت روايات الألسن وحرّف مزاج التاريخ، فزعزع حقيقة الأصل، وبلبل تسلسل الأحداث، وشوش السياق، كما يحدث لكل موروث" ²⁷ إن إعادة كتابة أسطورة أنوبيس هو نوع من البحث عن الحقيقة التي استدعت من الكاتب الخروج لسماعها من لسان الرواة والبحث عن المخطوطات، إنّها الكنز المخفي الذي يحمل المقدس الأول، وإيجادها ما هو إلا الطريقة المثلى للوصول إلى الحقيقة، فأن تجد المخطوطة الأولى المكتوبة باتيفيناغ الأصلي ما هو إلا دليل على وجود أمة الصحراء يقول "وأذكر أنّي عندما نزلنا الواحات وبدأت أكتشف طلاسم كتابة أخرى (هي العربية) غير رموز 'تيفيناغ' الأسطورية التي تعلّمتها كما يتعلمها كل أبناء الطوارق (من الأم)، تملل في قلبي الحنين للوقوف على حقيقة 'أنوبي' فخرجت للبحث عنه عبر صحرائي الكبرى اللانهائية " ²⁸ إن خروج الكوني هنا؛ يشبه كثيراً خروج أنوبيس الذي خرج لبحث عن الأب، أما الروائي فقد خرج بحثاً عن أسطورة أنوبيس من خلال النبوءة التي تتحدث

عنها فإنّ إيجاد مخطوطات لهذه الأسطورة ما هو إلا بمثابة تحقق نبوءة إيموهاغ التي يتمظهر من خلالها اغتراب الكويّ في صحرائه إذ يقول: "وكنزي وصيّة خفيّة جذرها في قلبي وجذعها مغمور في أفواه أقوام يرتحلون في متاهة الصّحراء وكان عليّ أن أطاردهم، وأجدّ في أثرهم، وأترحل معهم إذا شئت أن أقف على حقيقة كنزي وهذا ما فعلته فقد طُفت الأركان متنقلا على ظهور الجمال، وعبرْتُ الصحراء"²⁹ ليكون هذا الخروج هو الذي يتحدث عنه الكويّ في روايته، بالاتّكاء على الخطاب الأسطوريّ الذي كان قد حصّله سمعاً من رحلة البحث مع ما يبدو من خلال كلامه أن ذلك الخواء الذي أحدثه تضارب الروايات والمخطوطات تمّ سدّه من مخيلته، ولن يجد الكويّ أروع من رحلة الخروج للبحث عن "أنوبي" لبناء متخيّله السردّيّ الممزوج مع متن الأسطورة فمنها صاغ الكثير من الأحداث ومن هذا الاغتراب الحاصل معه عبّر عن ذاته بأنه وريث النبوءة إنه ابن إيموهاغ، وهو من سيحمي كنزه على حدّ قوله.

كانت العودة إلى الأسطورة السبيل إلى تمزيق لجام التفكير إذ لم تكن أبداً ردّة إلى الماضي أو رغبة مطلقة في الهروب من الواقع إذ يقول فروم "إنّما كان من أجل تطويع الفكر الأسطوري، بحيث يخدم الواقع الإنساني المعاصر أو بعبارة أخرى، لم يكن استخدام الأسطورة مقصوداً لذاته بل كان وسيلة لمحاولة التعبير عن الموقف الميتافيزيقي للإنسان ولإلقاء بعض الضوء على قضية المصير الإنساني"³⁰ فمن الواجب علينا التعرّيج على الأسطورة بعدّها التّقنيّة التي يوظّفها الكويّ ليتّرحم أفكاره ومعتقداته؛ ذلك أنّه يوظف فنا متوارثاً عن حضارة إيموهاغ ليعيد به إحياء ما ضاع منهم كما يقول الكويّ. فهم أصل الحياة البشرية وأصل اللّغة؛ إنه بحث عن النبوءة وما مسار أنوبيس إلا بعث لها، وما اقتفائه لأثر أسطوره إلا رغبة منه أن يعيش النبوءة ليكتبها بطريقة تنفرد عن باقي النماذج الروائيّة المستحدثة.

يصمّم أنوبي على الخروج بحثاً عن الأب رغم ما كان يسمعه من كلام العارفين بالصحراء، لتبرز لنا نزعة التمرد التي تعترى الإنسان في حالة التيه فهو يبحث عن حريته التي تدفعه للخروج ويرى أريك فروم أنّ " فلسفة كارل ماركس هي فلسفة احتجاج ³¹، احتجاج يقوم على الإيمان بالإنسان، وبقدرته على أن يحرر نفسه، ويحقق إمكانياته البشرية" هذا الإيمان الذي تقوم عليه فلسفة كارل ماركس والذي يقوم على الإيمان بروح الإنسان وبقدرته على تحرير نفسه هو ما نجده عند الشخصية البطلة " أنوبي" عندما حدّره كبير الرعاة من البحث عن الأب ولكنه استسلم عن ثنيه عندما رأى ذلك التصميم في عينيه لتتكشف لنا العلاقة كما يقول حلیم بركات " وقد تكون علاقة الإنسان بالله علاقة تحدٍ ³² فعدم الرجوع عن أمر الخروج فيه نوع من التحد للآله الذي لا يمكننا إدراكه.

أدرك أنوبيس أن لا رجعة في الدرب الذي سلكه فقد قرّر خوض الخروج وأي إنسان لا يعرف المكان جيداً مصيره التيه في الفضاء وتيهان في القلب يقول أنوبي " لا يبدو في الأفق أي أثر لبئر أو حياة، تفقدت المكان فاكشفت أنّ السبيل الذي سلكته طوال الليل لم يكن طريق القوافل، ولكنه درب من دروب قطعان الغزلان التي تهاجر عندما يسود الجذب ³³ هذا التيه الذي يحملنا على مقابله بما حصل مع الكاتب المصري مصطفى محمود يقول " تقولون إنّ الله خلق الدنيا لأنّه لا بد لكل مخلوق من خالق ولا بد لكلّ صنعة من صانع ولا بد لكل موجود من موجد .. صدقنا وآمنا .. فلتقولوا لي إذا من خلق الله ³⁴ إنّها نفس الأسئلة الوجودية التي يطرحها أنوبيس وكلها دلالة عن حالة من التشتت والقلق الوجودي الذي يصيب أيّ إنسان هذا الأمر الذي يدفع بالإنسان إلى التعطش للمزيد من الإجابات التي كانت تراوده أسئلة من دون إجابات مقنعة؛ إنّها قمة ضياع الروح والفكر يقول أنوبي " أيقنت أن جنون الظمأ أكثر عماء من الجنون الذي

يصيبنا إذا التقمنا أشجار الرّثم³⁵ تلك الرّحلة الّتي يقرر الإنسان أن يخوضها من دون زاد ولا حكمة نتائجها تكون وخيمة لا محالة والأمر سيان في الجانب الإيماني.

إن طرح الأسئلة وتلقي الأجوبة عنها وعدم الاقتناع بها، سيجعل البحث شاقا وقاتلا للروح وللجسد يقول مصطفى محمود " لم يكن الأمر سهلا لأني لم أشأ أن آخذ الأمر مأخذا سهلا، ولو أني أصغيت إلى صوت الفطرة وتركت البداهة تقودني لأعفيت نفسي من عناء الجدل ولقادتني الفطرة إلى الله ولكني جئت في زمن تعقّد فيه كل شيء وضعف صوت الفطرة حتى صار همسا وارتفع صوت العقل لاجحة وغرورا واعتدادا"³⁶

إن الإصرار على الخروج في نصّ الرواية ما هو إلا تلك الثّقة المعرفية بالتّغرات الدّينية التي كان يراها مصطفى محمود من خلال كتابه رحلتي من الشّك إلى الإيمان، ذلك اليأس الّذي تسبب في التّيه لأنوبي في الصحراء والظّمأ للحقيقة مما دفع بالطبيعة إلى أن تنقذه من خلال حيوان الغزال وإدراك جمالها يُضيف أنوبيس " الغموض هو الّذي رأيته في عينيها الكبيرتين، الكحلاوين الذكيتين فهل هما عينا حقا، أم أنهما بئر خفي يتكلم بتلك اللّغة الموجهة، اللّغة الحقيقيّة اللّغة المنسية؟"³⁷ وهذا ما جاء به مصطفى محمود عن قياس الروح من خلال جمالها الخارجيّ " ونحن حينما ندرك الجمال ونميّزه من القبح وندرك الحقّ ونميّزه من الباطل وندرك العدل ونميّزه من الظّلم. فنحن في كل مرة نقيس بمقيار بمسطرة منفصلة عن الحادث الذي نقيسه. فنحن إذا نقيس من العتبه نفسها عتبه الرّوح فالوجود الرّوحي يمثله فينا أيضا الضمير ويدل عليه أيضا الإحساس بالجمال وتدل عليه الحاسة الخفية التي تميز الحق من الباطل والزائف من الصحيح وتدل عليه الحرية الداخلية فالروح هي منطقة السريّة والحرية الطليقة والاختيار والتمييز³⁸

إن هذه الدرجة من الإدراك الرّوحي الّتي وصلت إليها الشّخصية البطلة وتمييزها للجمال الرّوحي لغزال من عينيها، إذ يصل إلى عظمة التّقاء الرّوحي وهو في شدة الظّمأ، فكما هو معلوم أنّ العينين هي مدخل للرّوح ذلك السّمو الرّوحي والشرارة الحاصلة بين الغزال

التائه في سبيل الخلود دفع به إلى إنقاذ نفسه بشرب بول الغزال، وهاته المرحلة التي ستكون نقطة التحول الكبرى في الأسطورة يقول " أحسست أن الإلهام يسري في بدني كما سرى بول الغزال في بدني فوجدت في نفسي القدرة على فهم اللغة المنسية التي تجعل لساني ولسان الغزال واحدا وتجعل من مصيري ومصير الغزال مصيرا واحدا وروحي وروح الغزال روحا واحدة"³⁹ وهذا الأمر الذي يؤجج الاغتراب عن الذات نجده عند فروم من منظور ماركسي يقول فيه " إنَّ الغرض من دراسة الاقتصاد والمجتمع عند ماركس هو فهم تلك الظروف التي تؤدي إلى عجز الإنسان، ومعرفة الأسباب التي تجعل الإنسان مغتربا عن نفسه وعن قواه الإنسانية " ⁴⁰ إنَّ هذا الاغتراب عن القوى الإنسانية هو ما يعبر عنه الكوني في رواية أنوبيس بفكرة المسخ إذ يقول "تذكرت ملحمة الأجيال التي تروي كيف تحوّل " وانس" مخلوقا منكرا برأس إنسان وجسم غول، لأنه خالف وصية شقيقته " تانس" فشرب من بول الغزال عندما نال منه العطش أثناء عودته إلى موقع المبيت الذي نسي فيه تائممه "⁴¹ فالثقافة العربية مشبعة بالقصص الأسطورية حول ظاهرة المسخ وإنما كانت ظاهرة التحول معروفة في كثير من القصص في التراث العربي وهذا راجع للخفيا التي يعيشها إنسان الصحراء من أمور عجائبية فكثر الأساطير والاعتقادات لدى الإنسان ومنها حكاية الغول أو المسخ.

يُعرف الجاحظ المسخ في كتابه الحيوان يقول " إسم لكل كائن من الجن، يعرض للسفار، ويتلو في ضروب شتى من الصور والثياب، ذكر وأنثى إلا أن أكثر كلامهم على أنه أنثى"⁴² ويتناول الجاحظ المصطلح عند أهل الكتاب فيقول " ولم أر أهل الكتاب يقرّون بأن الله تعالى مسخ إنسانا قط، خنزيرا ولا قردا، إلّا أنهم أجمعوا أن الله تبارك وتعالى قد مسخ امرأة لوط حجرا، حين التفتت وتزعّم الأعراب أن الله قد مسخ كل صاحب مكس وجاني خراج إتاوة اذا كان ظلما وأنه مسخ ماكسين، أحدها ذئبا و الآخر ضبعا "⁴³ في الرواية نعبّر لما سماه المسخ بعد اشتداد العطش على انوبيس وهو تائه لقد وصل لحافة

الهلاك غير أن الغزال ظهرت أمامه وشرب من بولها ليُمسح نصفه السفلي إلى حيوان ونصفه العلوي بقي على هيئة إنسان ليتحول بعدها بصره وإدراكه للأشياء من خلال الهَيَام في الجمال والعبور منه إلى التحرّر من البدن بعد التعمق في " البهاء الذي لا نراه إلاّ في العيون التي احترفت التحديق في عين الأبدية حتى صار لها الغياب طبيعة ثانية اتسعت عينها الكحلاوان واستحالتا بحيرة من الألق والشقاوة والغموض نخلتُ منهما بنهم كما نخلت من البول منذ قليل فبدأتُ أتحرّر لم أتحرّر من الوجع، أو من المرارة، أو من الوهن فحسب ولكنني تحرّرت من البدن أيضا ⁴⁴ وهذا ما يعبر عنه مصطفى محمود بأن الجمال هو السّمُو في إدراك الجمال الروحي هو اليقين الذي يبعث على التحول " فذلك النور الغير المرئي في نفوسنا والذي نرى على ضوئه طريق الحق ونعرف القبح من الجمال والخير من الشر ⁴⁵ ويدقق فروم في الروابط الأولية على أنها عائق ولهذا يعتقد بأن التحرر منها يمثّل الميلاد الحقيقي للبشريّة إلاّ أنه " يبيّن أن هذا التّحرّر، إمّا يؤدّي إلى فقدان الأمان والانتماء، من ثمّ فإنّه يرتبط بالشعور بالوحدة والعزلة والقلق، إذ يقف الإنسان وحيدا مواجهها لكل العالم، وهذه هي الحرّية السّلبية من وجهة نظر فروم، وهي تمثّل مرحلة إنتقال إلى الحرّية الإيجابية التي يستطيع فيها الإنسان أن يحقّق ارتباطه الأصيل بالعالم وبالأخرين دون أن يفقد ذاته أو يستأصل فرديته ⁴⁶ إنّ موضوع التّحوّلات ومسح البشر لكائنات أخرى نقرأ فيه أبعادا جمالية وفلسفية عميقة " ويناقشه الدارسون باعتباره موتيفا أدبيا يشير إلى الانفصال بين الجسد والوعي، أو العقل بين الشكل والجوهر وذلك عندما يحدث الانقلاب بين خلقة إلى أخرى. فالمسح والتحول يختلف في دراسته بين مجموعة من العلوم مثل الأنثروبولوجيا والفلسفة وعلم النفس وعلم الجمال ودراسة الأديان، أما التحول في الأدب فله علاقة بالبحث عن الهوية، فالانفصال والخروج إلى آخر ليتعرف الإنسان على هويته الأصلية ⁴⁷ هذه رحلة جعلت من شخصية "أنوبي" شخصية صلبة تواجه الطبيعة بكل أصواتها وتحدياتها، والتحول هنا هو ذلك التماهي مع

الحرية لقد عُيِبَ "أنوبيس" الجسد وُبُعِثَ في جسد نصف إنسان إلا أن وعيه لم يتحول وبقي وعي إنسان مدركا لما يدور حوله من أحداث بل لقد حاول أن يتسلل إلى العالم الآخر، ولكن القطعان أدركت حقيقته وفُتِرَ منه وهنا نتسأل عن هذا الإنكار الحيواني للمسوخ ونفورهم منه وهذا الإنكار يمكن تفسيره من خلال ما يقول به إيريك فروم "أن حالة الوجود الحيواني التي سبقت الوجود الإنساني قد تميزت بالخضوع التام لقوانين الطبيعة البيولوجية فلم يكن الحيوان يمتلك الوعي بذاته الذي يساعده على أن يتجاوز الطبيعة، ولم يكن يمتلك العقل الذي يساعده على التحرر من سيطرة الغريزة" ⁴⁸ وهنا نشهد ميلاد كائن جديد وهو الإنسان الذي يستطيع فهم الطبيعة ومسارقتها وأهم ما يميز هذا الإنسان هو "امتلاك ملكات الوعي والخيال تلك الملكات التي أدت بالإنسان إلى الانفصال عن الطبيعة وتشويه ذلك التناغم الذي كان يتسم به الوجود الحيواني مع الطبيعة" ⁴⁹ حسب فروم لم تسهم هذه الملكات في خروج الإنسان عن الطبيعة بل حققت له الانفرد فهو من الطبيعة ولا يستطيع الخروج منها إلا أنه يعلوها وهو نوع خاص برغم من أنه يعتبر جزءا منها إلا أنه "واعي بذاته فإنه يتحقق من عجزه وخوائه، ومحدودية وجوده، ويتمثل نهايته ألا وهي الموت أنه لا يستطيع أن يتحرر أبدا من انقسامية *dechotomy* وجوده، ولا يستطيع أن يتخلص حتى من عقله إذا أراد، ولا يستطيع أن يتحرر من جسده أيضا فطالما أنه يحيا فجسده يدفعه للحياة" ⁵⁰ لقد تطرقت لفكرة الحيوانية والإنسان وعلاقته بالطبيعة للتوضيح كيف ساهمت الأسطورة بإعادة الإنسان إلى حريته الأولى إلا أنها أسهمت في توظيفها بلمسة عقابية أو كنتيجة للتمرد كما وجدناها في رواية أنوبيس.

إن هذا البناء الفكري للمسوخ هو إعادة الإنسان لطبيعته الأولى كحيوان غريب متفرد عن بقية الحيوانات التي كانت ترفض التعايش معه، إضافة إلى ذلك أننا نجد تحول أنوبي لم يفقده وعيه أو معرفته بل كان أشد وعيا ويتعلم أكثر وذلك الخروج من عالم

الحيوانية بزد كبير من المعرفة يطلق عليه بالولادة الثانية يقول " فهل هو ميلاد؟ هل هو ميلادي الأول، أم ميلادي الثاني، إذا كان في الأمر حقاً فيقينا أنه ميلاد ثاني لأن وسوسة خفية إنتباتني بما لا يدع مجالاً للشك بأي كنت شاهداً على يوم آخر لأن نبوءة الضياء التي اعترضت بصري في الخارج لن يكتب لها أن تكون أكذوبة " ⁵¹ إن اليقين بالميلاد الثاني هو ذلك الفهم للجسد والنفس والعقل والبصيرة وهذا ما يفسره مصطفى محمود من خلال تجربته.

"إن مجرد الهيمنة الداخلية على جميع عناصر الجسد ومفردات الغرائز هي الشهادة الكاشفة عن ذلك العنصر المتعالي والمفارق الذي تتألف منه الذات الإنسانية وعن طريق النفس أتحكم في الجسد، وعن طريق العقل أتحكم في النفس وعن طريق البصيرة أضع للعقل حدوده" ⁵² فالنفس والعقل هما أساس الإنسان وإن المسخ لم يفقد هذه الهبة وقد بقي يستعملها سعياً لإثبات الولادة الثانية ليفهم مصيره ويكافح من أجل الحقيقة في الصحراء التي جعلته يحتك بعوالم الجن والغيب ويفهم مفردات الصحراء في سكونها وغضبها في امتحانها له وفي خداعها وعندما تثبت النفس بسبب "جوهرها بالدرجة الأولى في ذاتيتها، وحقيقتها أنها الوجه الآخر من الصورة فهي الذات في مقابل الجسد الذي هو موضوع .. وكلا القطبين الذات والموضوع هما وجهها الحقيقة" ⁵³ عندما أدرك أنوبي الحقيقة من ميلاده الثاني وما ترتب عنها من تضحية الأم بنفسها من أجله نذرت ناقة ثم قطيعها ولكنها عندما سمعت بتحوله أيقنت أنها لا بد من التضحية بروحها، لقد دفعت الصحراء روحها ثمناً لابن الضائع ليعود لطبيعته ويولد من جديد مكتسباً للنبوءة الأب المقدس وهو ما يتطابق مع ما جاء به هيجل في حديثه "نجد هيجل يعرض لنا ثلاث مراحل لترقي الروح: مرحلة كان يندمج فيها الفرد اندماجاً تاماً -غير قائم على الوعي أو التأمل- مع مجتمعه وثقافته، ثم مرحلة أخرى ينفصل فيها الفرد باعتباره شخصية منفردة ومستقلة، ومرحلة أخيرة تتحقق فيها وحدة جديدة أرقى من الأولى

ولكن لا يفقد فيها تفرّده واستقلاله وتلك المراحل هي أشكال الرّوح الثلاثة: الرّوح المباشرة، والرّوح المغترب عن ذاته، والرّوح المتيقّن من ذاته".⁵⁴

من خلال دراستنا للنص نجد بأن ثمن النبوءة هو التّيه، وعاقبة التّيه هي الدّم والخطيئة وكل هذا من أجل الأب إلا انه لا يمكن إدراك الأب إلا من خلال النبوءة.

يقول:

" منذ قليل تهيأ لي أني أحيا ميلادا
بلى أنت تحيا ميلادا لا شك فيه
هل هو ميلادي الثاني؟
بلى من حقلك ألا تشك في ذلك
هل الميلاد الثاني فردوس؟
لا نحيا مرّة إلاّ بأمل أن نولد مرّتين!

ردّدت وراءه: لا نحيا مرّة إلاّ بأمل أن نولد مرّتين"⁵⁵

إننا نعتبر أن الميلاد الثاني هو فهم لها بالرغم من أنه صرح بأنه يكتسبها ولكن إيقاظها كان يستوجب كل هذه الرحلة التي بعثتها فيه مع ميلاده الثاني، إن هذا المسار الذي يخرج فيه أنوبي ما هو إلا تلك الطريق التي يسلكها كل إنسان بحثا عن الحقيقة ففي نهاية الدرب ننتهي إلى ميلاد ثان نعبر إليه من خلال الخروج ومواجهة الحياة والعبث في قدرها.

الكرامة الصوفية في رواية أنوبيس:

تتماهى الأسطورة مع فن الرواية بالرغم من أنها فن مستقل بحد ذاته، إذ يسرد علينا إبراهيم الكوني تفاصيل أسطورة جَمع تفاصيلها في رحلة شاقة قادته للصحراء هذه الأسطورة التي أدججها في قالب غير قالبها وهو الرواية نجدها مشبعة بالتفاصيل الدينية لأهل الصحراء، تبرز لنا الكرامة لأنها "كالأسطورة، لم تمت في المجتمع العربي الراهن؛ وما تزال تطل بالإنسان على الأمل وتمتزج بالبطولة الدينية، وتترك العنان للخيال، وتربط الفرد

بالمطلق، وتعتبر عن تجارب روحية وأوليات نفسية دفاعية أو تكيفية⁵⁶ " إن ربطنا للكرامة برواية أنوبيس جاء نتيجة لكثافة الجانب الديني داخل نص الرواية إذ " ترتبط الكرامة بالمعتقدات الدينية، فتعيد وتثبت ما جرى من معجزات، وما حصل عند نشوء الاحتفالات والطقوس والعبادات وتشرب من المعتقدات الشعبية، فتجتاز الأسطورة، و الخرافة، والمثل الشعبي، واللغز وتحضن رواسب معتقدات قديمة وتصورات طقوس واحتفالات وموضوعات سحيقة، ورموزا، وظواهر طبيعية ومواسم فصلية وتنمو الكرامات هذه الملاحم الداخلية والأناشيد البطولية الجارية في النفس البشرية إلى جانب العلوم الخفية والآداب والشعر والفنون"⁵⁷ إذا نحن أمام مصطلح مرتبط بالجانب الديني بالكرامة الصوفية تحديدا يترأى لنا أنوبي وهو الشخصية البطلة في الرواية يهدف إلى الخروج متحديا لإرادة القبيلة وسلطتها فيقول " سلكت سبيل الإبل حتى اهتديت إلى الرعاة في المراتع المجاورة فأخبرتهم بالحقيقة قلت لهم إني خرجتُ بحثا عن أبٍ لم أراه إلاّ شبحا عندما كان يدخل بيتنا كاللص متسللا ويفرّ منه قبيل الفجر متسللا"⁵⁸ فالبطل هنا يعزم على القيام بفعل خارق وخطير جدا إذ نصحته سلطة القبيلة بالعدول عن قراره ليرد عليه الرعاة "إياك أن تبحث في الصحراء عن أب ! هذا يجلب النحوس!"⁵⁹ إن ما سيقوم به أنوبي هو فعل خارق للعادة لدى قبيلته

وهذا ما يتجلى لنا من خلال ردة فعل الرعاة بالسخرية والاستهزاء كما " يتشابه القصص الديني، الميثوث في كتب التفسير القرآني مع الكرامات في جوانب عديدة فالبطل هنا وهناك خارق بقدراته وبسلوكه، يهدف للهداية وينتصر على كل المعوقات"⁶⁰ يستمد فعل البطولة من قصص الأنبياء المعروفة فكل الأنبياء كانوا أبطالاً في نظر أصحابهم وفي مخيلة الأتباع من بعد هذا ما يجعل الأساطير تحاك على ذلك المنوال وتؤلف فيهم حكايات مرتبطة بالدين وتعتمد على الكرامات في تدعيم هذه القصص يقول علي زيعور: " نجد

في الكرامات أيضا مكان للموعظة وتقديس للأسلاف والموت؛ وتتغذى هذه من الأدب الشعبي والخوارق اللامعقولة، والذهنية الخرافية

لكن الكرامات رغم الشبه القوي والانتفاع الجَم من النماذج السابقة، تبقى مختلفة فهي خاصة بالأولياء، وهي المرادف الذي يضعه الصوفي لنفسه إزاء ما يميز به الله أنبياءه هنا الكرامة وهناك المعجزة⁶¹ إن ما عاشه أنوبي من أزمات في رحلة البحث عن الأب وما واجهه من تحول إلى مسخ على هيئة نصف حيوان ونصف إنسان، إذ تربط بين الحيوان والإنسان والانتقال بينهما علاقة وثيقة لدى المتصوفة يقول المسخ" ولكن الغموض هو الذي رأيته في عينيها الكبيرتين، الكحلاوين الذكيتين فهل هما عينان حقا، أم أنهما بئر خفي يتكلم بتلك اللغة الموحدة، اللغة الحقيقية اللغة المنسية؟

أحسست أن الإلهام يسري في بدني كما سرى بول الغزال في بدني فوجدت في نفسي القدرة على فهم اللغة المنسية التي تجعل لساني ولسان الغزال واحدا وتجعل من مصيري ومصير الغزال مصيرا واحدا وروحي وروح الغزال روحا واحدة

ساعتها فقط ومض القبس واكمل الوحي في قلبي⁶² إن ظاهرة التحول شائعة بين المتصوفة وفي كتبهم كثيرا ما "يقابل ذلك في التصوف العديد من الحالات التي نجدها في مجموعة من الكتب التي قدست الكرامات، نظير جامع الكرامات للنهباني، والتي ترفع الحاجز بين الإنسان والحيوان وتجعل الصوفي يجتاف وظائف الساحر وينافسه في القدرة على التحويل من حالة إلى حالة أو على الخلق⁶³ هذا التحول في اعتقادي هو مرحلة من مراحل اليقين لدى أنوبي ففيها تعلم الكثير عن عالم الحيوان وعالم البشر أو كما قال ساعتها اكتمل الوحي في قلبه" هذه المخلوقات، والكثير غيرها مما نجده في القصص الدينية الشعبية وفي الفلكلور، تعبيرات عن حالات نفسية وتغييرات في الرغبات المكبوتة وقد رسمها الفنان العربي في لوحات وصور عديدة وتمثلها الكاتب الصوفي مريدا كان أم شيخا، في روايته لتجاربه النفسية متغذيا من البنى الاجتماعية عينها التي أنتجت الفلكلور

والفنون الشعبية والقصص الدينية⁶⁴ ومن خلال كل هذا نرى بأن ذلك الشيخ الذي أصبح عليه أنوبي مكلّلاً بالنبوءة قد مرّ بمراحل اختبرت يقينه وإيمانه في رحلة التيه أما فيما يتعلق بالراوي فنجد صاحب الكرامة يتماهي مع الراوي كما تقول آمنة بلعلی: «قد يتجلى ذلك بشكل أوضح حين يكون السارد هو الشخصية ذاتها على الرغم من أنه قد يعرض مجموعة إشارات تثبت كرامته وهي مجموعة من التقنيات التي يستغلها ليحقق التواصل مع المتلقي ومن ثم فرض عالمه الخوارقي وتصيد قدرة المتلقي على التعرّف عليه والتفاعل معه وهنا يصبح السارد نفسه شخصية مركزية، تتمتع بحركية نفسية معرفية وحتى فيزيولوجية خارقة»⁶⁵ يتداخل السارد مع صاحب الكرامة فيما يشبه عملية إحياء لهذه الشخصية تتحدث عن نفسها وتشرح وتنطق بالحكمة هذه الطريقة التي يتمازج فيها السارد بصاحب الكرامة يعتمد عليها الكوني على لسان شخصية أنوبي من الكلمة الأولى "وقال أيضا بأنهم كلفوا بإبلاغي بأن الواحة التي نلتها من يد الخفاء يوما هبةً صارت مع الأيام في عنقي وصية أيضاً وتركها لعبة في أيدي الهواة و الأدعياء والمغامرين خطيئة لا تُغتفر بعد اليوم وعقلاء الواحة الذين يناشدون قديمي لا يريدون أن يثقلوا كاهلي بهم الدنيا ولكنهم يرجون أن أقبل الجلوس إلى جوارهم رمزاً، لأن وجود الذين تألموا كثيراً في عُرف الناموس، بحّد ذاته حكمة وقيمة ووصية فلم أجد حيلة إلاّ الامتثال"⁶⁶ استند الكاتب إلى الراوي العليم وهذا ما تبين لنا من خلال المقطع السابق وهذا ما تقوله آمنة بلعلی "انطلاقاً من أن لا معنى لأن يقدم سارد ما لنفسه معلومات عن أحداث وقعت له في فترات معينة من حياته تتأكد الوظيفة التواصلية للحكي من حيث أنه لا يتوجّه به إلاّ إلى مستمع متلقٍ حقيقي أو متخيل"⁶⁷ إن ما يميز نص أنوبيس هو اعتماده على سارد ليس متخيلاً من إبداع الكاتب؛ وإنما هو سارد وجد في أسطورة وصاغها في قالب رواية وقد اعتمد الروائي على مراجع تراثية كانت مخفية في الصحراء وملاً ذلك الفراغ بمخيلته وهنا تتوازي الكرامة مع الأسطورة إذ لا ينفك الارتباط قائماً

وشديدا بين الأسطورة و الكرامة؛ ولكن الكرامة تتحكم في طائفة مؤمنة وتجعلهم يصدقون بها فالتأثير على عقل مؤمن يختلف عن التأثير في عقل طبيعي لا يؤمن بنوع معين من الدين وهذا ما نقرأه في رواية أنوبيس إذ الشخصية تتحدث عن نبوءة تحققت فيه بسبب الخروج وبجثته عن الأب "لأن نبوءة العهد القديم أخبرت أن أجيال الأغراب هم الذين سيطلقون عليه اسم (تارجي) تيمناً بالوطن، فتجري على ألسنة بعض الأقوام (تارقي) وعلى ألسنة أقوام أخرى (طارقي) دون أن يدروا أن لعنة أنوبي أن يحيا بين الأنام غرباً"⁶⁸ هنا في مفارقة بين الاولياء أصحاب الكرامات وأنوبي أن الاولياء يبقون مع متبعيهم غير أن أنوبي فضل الخروج والبقاء في الصحراء وكان يمر عليه الناس والجن وقد برزت قصصه مع الجن في عدة مواطن كما يحدث في الكرامات فهي تحمل قصص عن الجن أيضا يقول "لقد بقي الغول في التصوف رمزا للشر والهلاك والبلع كما كان في الأسطورة العربية ولكن الكرامة واذ ابتلعت سائر المعتقدات الجاهلية بالجن فقد شددت على ما يقدم العون منها إلى البطل وهكذا فقد جعلت من صلبها وفي بدنها الوظيفة الإيجابية للجن الجاهلي المتمثل في: عامر الوادي، والآتي، والرئي، والهاتف فالهاتف في الأساطير العربية يقدم المساعدة للبطل؛ والرئي ينصحه و يصاحبه والتي يأتيه في المنام ويختلف عن القرين؛ وعامر الوادي يرد للراعي غنمه هذه الطوائف عبدت لكونها ضرورية للحياة"⁶⁹ بعد تغلغل أنوبي في دهايز المعرفة بالصحراء، ظاهرها وباطنها، روحها النقية وعوالمها الخفية تعرّف على كل خيرها أثم أهلها بعد كل هذا أصبح من أهل العرفان بعد أن زاره أحد في خلوته شبهه بالشبح ولكنه تعرف عليه يقول "فاقتربت منه خطوة، خطوتين انحنيت فوق رأسه وهتفت بصوت من اكتشف بئرا أو نبعا:

- أنت آرا! لا شك أنك آرا!

فزّ الشبح النحيل من مكمته فزة مارد وارتج رجّة لم أر لها مثيلا إلا في أجساد الممسوسين الذين لوّعهم الوجد طويلا لم أعرف بعدها ما حدث يقيناً كل ما لحتّه هو

نصل المدينة عندما تحمّم بضوء البدر الوليد. ثم حرارة السائل اللزج المتحتر الذي تدفق من نخري كنت ما زلت وقفا في مواجهته عندما حشرجتُ بالسؤال -ولكن. لماذا؟ لماذا قتلني؟⁷⁰ لقد قُتل أنوبي في سبيل العرفان حيث تعرف على آرا قبل أن يقتل على يديه، لم يكن الموت شيئا جلالا أو مرعبا بالنسبة لأنوبي إذ أنه هم بتوصية الشبح قبل موته بوصية أخيرة وكذلك قاوم ليدون الرقعة الأخيرة من سيرته يقول في ذلك زيغور "الكرامة في جميع الأحوال وفي الأصل رواية والجانب الروائي فيها هو الأكثر أهمية وموضوعه تجارب صميمية وإن أعتقد بصحة حوادثها المؤمنون وهي كثيرة التعقيد، ترتبط بكل الظواهر الاجتماعية أو هي ظاهرة كلية متعاضدة مع النظم والمعتقدات المجتمعية كافة قد تبدوا بسيطة سريعة ومجرد خرافة أو قصة يرويها بفخر بطل أو تابع عن بطل وفي الواقع أن الكرامة أعقد مما يظن للوهلة الأولى فهي تختصر المعتقد الديني وتضم نظرات مجتمعتها على الكون والانسان والمستقبل"⁷¹ إذا حملت رواية أنوبيس عديد الصيغ الفنية للرواية فهي أخرجت لنا أسطورة في ثوب رواية وكذلك جمعت الكرامة باعتبارها رواية يصدق بها المتصوفة والمؤمنون بالكرامة في فن الرواية هذا ما خلق جمالية فنية للرواية التي جعلت المتلقي يدرك عددا من الفنون داخل النص الروائي.

خاتمة:

في الختام نخلص إلى ان الكوني قد كتب من خلال ذاته رحلة اغتراب أمته منذ القدم في أساطيرها وأن أمة الطوارق وارتحالا ما هو إلا ذلك الشغف بالحياة والحرية والبحث عن النبوءة وكما يتبين لنا من خلال النص أن الكوني يقدر قوميته ويبحث فيها ذلك الوحي المفقود من خلال أساطير الأوليين كما انه لم يتوانى في البحث عنه وتدوينه، ويتجلى لنا أيضا أن الصحراء هي التي تدفع بالإنسان للاغتراب بحثا عن مقومات الحياة ويتطرق إلى فكرة الطوارق باعتبارهم أبناء الإله مستخدما في ذلك جزئية الابن مجهول النسب الذي هو دائما في رحلة البحث عن الأب رابطا غياب الأب البيولوجي وانتسابه للأب الأقدس

وهو الإله وبنمط آخر إذا نظرنا لنصه برؤية المتصوفة والكرامة الصوفية سيتجلى لنا بأن النص يحمل بين ثناياه أسطورة لأمة من المتصوفة تعيش بين الكثران لا يدفعها في رحلتها إلى التصوف وازعها الديني وإنما، إذا أمكننا القول أنهم متصوفون بالفطرة منذ خروجهم للاكتشاف في خلوتهم بين ثنايا الصحراء وهي من تساهم في ذلك فالخلوة الصوفية هي نمط حياتهم إنهم يبحثون عن ذواتهم وعن الحقيقة وعن الله بين الرمال وفي الليل بين السماء وطيف الجن وأصواتهم يعقد الكوني في نصه صفقة مع أمتة المستترة عن العالم ويمارس التورية بأتمته من أجل إظهارها للعالم تلك الأمة الزاهدة في الحياة، والمتشبهة بأصالتها.

الهوامش:

¹ حسن حماد الإنسان المغترب عند إيريك فروم دار الكلمة القاهرة سنة 2005 ط 1 ص 69

² المرجع نفسه ص 69

³ القرآن الكريم سورة الأعراف الآية 21-26

⁴ حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 69

⁵ إبراهيم الكوني، أنوبيس، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، سنة 2002، ط 1، ص 26

⁶ حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم ص 131

⁷ حلیم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت، سنة 2006، ط 1، ص 133

⁸ رواية أنوبيس، ص 26.

⁹ حلیم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، ص 134

¹⁰ حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 90

¹¹ رواية أنوبيس، ص 26

¹² المصدر نفسه، ص 66

¹³ حلیم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، ص 133

¹⁴ والتر كوفمان، حتمية الاغتراب، تر: كامل يوسف، شركة خياط للكتب والنشر، بيروت، ص 38

¹⁵ جديدي زليخة، الاغتراب، مجلة العلوم الإنسانية والاجتماعية، العدد الثامن، جوان 2012، ص 351

¹⁶ رواية أنوبيس، ص 27

¹⁷ حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 100

¹⁸ حلیم بركات، الاغتراب في الثقافة العربية، ص 48

¹⁹ رواية أنوبيس، ص 27

²⁰ المصدر نفسه، ص 27

²¹ رواية أنوبيس، ص 5

- 22 نضال صالح، النزوع الأسطوري في الرواية العربية المعاصرة، دار الأملية، سنة 2010، ط 1، ص 123/ 124
- 23 رواية أنوبيس، ص 5
- 24 رواية أنوبيس، ص 5
- 25 حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 29
- 26 نضال صالح، النزوع الأسطوري، ص 12
- 27 رواية أنوبيس، ص 5
- 28 رواية أنوبيس، ص 6
- 29 رواية أنوبيس، ص 6
- 30 حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 29
- 31 حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 36
- 32 حليم بركات، الإغتراب في الثقافة العربية، ص 129
- 33 رواية أنوبيس، ص 32
- 34 مصطفى محمود، رحلتي من الشك إلى الإيمان، دار المعارف، القاهرة، ص 7
- 35 رواية أنوبيس، ص 34
- 36 مصطفى محمود، رحلتي من الشك إلى الإيمان، ص 9
- 37 رواية أنوبيس، ص 35
- 38 مصطفى محمود، رحلتي من الشك إلى الإيمان، ص 28
- 39 رواية أنوبيس، ص 35
- 40 حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 37
- 41 رواية أنوبيس، ص 35
- 42 بلوصيف كمال، أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة وأثرها في الثقافة الشعبية الجزائرية، مجلة العلوم الاجتماعية، ص 288
- 43 بلوصيف كمال أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة وأثرها في الثقافة الشعبية الجزائرية، ص 288
- 44 رواية أنوبيس، ص 36
- 45 رواية أنوبيس، ص 29
- 46 حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، 147-148.
- 47 بلوصيف كمال أسطورة المسخ والتحول في الثقافات القديمة وأثرها في الثقافة الشعبية الجزائرية، ص 289
- 48 حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 39
- 49 المصدر نفسه، ص 39
- 50 حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 40
- 51 رواية أنوبيس، ص 37
- 52 رحلتي من الشك إلى الإيمان، ص 24
- 53 المصدر نفسه، ص 26
- 54 حسن حماد، الإنسان المغترب عند إيريك فروم، ص 86
- 55 رواية أنوبيس، ص 42
- 56 علي زيعور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، دار الأندلس، ط 2، لبنان، 1984، ص 19

- ⁵⁷ علي زيغور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص 19
- ⁵⁸ رواية أنوبيس، ص 27
- ⁵⁹ رواية أنوبيس، ص 28
- ⁶⁰ علي زيغور الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص 31
- ⁶¹ المرجع نفسه، ص 33
- ⁶² رواية أنوبيس، ص 35
- ⁶³ علي زيغور الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص 51
- ⁶⁴ المرجع نفسه، ص 54
- ⁶⁵ آمنة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، دار الأمل تيزي وزو، ط1، سنة 2009، ص 231
- ⁶⁶ رواية أنوبيس، ص 200
- ⁶⁷ آمنة بلعلي، تحليل الخطاب الصوفي في ضوء المناهج النقدية المعاصرة، ص 233
- ⁶⁸ الرواية ص 201
- ⁶⁹ علي زيغور، الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص 64
- ⁷⁰ رواية أنوبيس، ص 205
- ⁷¹ علي زيغور الكرامة الصوفية والأسطورة والحلم، ص 71